صور من الحياة :

ركن يتداعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

أتذكر أنني – يا صاحبي – أنك كنت لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة ، وأنيس القلب في وحشة العمر ، ونور النفس في ظلام العيش !

لقد كنت إذ ذاك فتى مدقّ النشأة والمزق ، تختال في الصحة وترفل في العافية ، وتتألق على وجهك سمات النعمة وتبدو على جبينك علامات السعة ؛ لا تعوزك المتعة الرخيصة ولا تفتقر إلى اللذة التافهة . وأبوك صائغ ماهر يصوغ من الذهب الدور والأطيان . والصائغ ساهر ينفث في النقد ليخلق لنفسه الثراء والغنى ؛ غير أنه مبتلى بالشح ، مهزأ بالكزازة ، يبرره الجزع من الإنفاق ، ويدهمه الخوف من البذل : طبيعة ركبت فيه لأنه يرى الكنز بين يديه وهو يتلألأ بريقاً يخطف البصر والقلب ، فيشفق أن تبدده لوثة الكرم أو أن يتلعه داء السخاء . وهكذا كان أبوك – يا صاحبي – صائغاً يصوغ الثروة ويضن بها على نفسه وعلى أولاده ، فما تبضّ يده بالقرش ولا ينبض قلبه بالشفقة . فأصابك بعض قسوته وعنفه . وأحسست أنت بغلظة أبيك دون شحه ، لأن أمك كانت إلى جانبك ، فاعتراك تكسر وقصور من طول ما دعّك عن نفسه وعن مجلسه فنفرت من دارك وأهلك .

أما أنا فكنت فتى ريق الطبع فروى المزاج ، أسترسل في سذاجة وآخذ في قوة وأدفع في عنف ، وأنا إذ ذاك قريب عهد بالمدينة ، لم تمسني رجارة المدنية ولا شاغلتني طراوة الحضارة . أعيش وحيداً في حجرة وضيعة ، أحس الشظف والضياع ، لا أجد الرفيق ولا ألمس الراحة ، أتقلّب بين عناء الدرس وعنت الحياة فلا أتذلل ولا أضيق ، وأتنسم ريح القرية – بين الحين والحين – على أجد فيها بلاغاً ، وأنتظر هبّات عطف أبي – بين الفينة والفينة – عسى أن أنشق فيها عطر الشفقه . فتعلمت في وحدتي أول مبادئ الصبر والأنفة ، وتلقنت من فاقتي أول تعاليم الترفع والكبرياء .

واطمأن قلبي إلى قلبي ، وسكنت نفسي إلى نفسي ، فانطلقنا معاً – جنباً إلى جنب – نجتاز مراحل الدراسة في غير وناء ولا بطء ، صديقين عاشا في صفاء لم يعكره خصام ولا شابه تدابر ، وانطوت الأيام .

* * *

وتخرجت – يا صاحبي – في مدرستك لتصير موظفاً في وزارة الأشغال ، وانفلت من شح أبيك وقسوته لتنشق – لأول مرة – عبير الحرية والخلاص ، ثم اخترت لحياتك فأصبحت – بعد سنوات – زوجاً وأباً وربّ أسرة . أما أنا فقد طوحت بي الحياة في مطارحها ، لا أستقر في مكان إلا لأنزع عنه ، ولا أهدأ في بلد إلا لأطير عنه . فصرفتني شواغل العيش عن أن أراك وأنا لا أنسى أنك كنت لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة ، وأنيس القلب في وحشة العمر ، ونور النفس في ظلام العيش .

ثم هفت نفسي إليك – بعد عمر من عمري – فانطلقت ، فرأيتك رجلاً تتوثب قوة وفتوة ، وتفيض بشراً وسروراً ، يلمع الأمل في ناظريك ويبسم الرضا من نضارتك ، وبين يديك صغار يرفون حواليك كالأقمار رونقاً وبهاء ، يملأون الدار جمالاً وسعادة ، ويغمرون قلبك بالغبطة والبهجة . أما زوجك فكانت روح الدار وريحانها .

خيره وسمته وسيادته ... اليوم ، وبعد تلك الأعوام المائة ننظر إلى البناء الذى أقمناه بجهادنا على أرض القومية المصرية ، فلا يمكننا إلا أن نذكر واضع الأساس الأول في هذا البناء ، وغداً حين نواصل السير في الطريق الذى نتشوف إلى بلوغ منتهاه ، سنرتد بأفكارنا إلى الوراء نلتمس الهدى من تاريخ رجل هو قدوة السائرين في كل طريق .

لقد كان محمد على مصريا بالطبع والسليقة وإن لم يكن مصريا بالمولد والنشأة . وأعظم بهذا المصرى الذى شغلته مصر عن وطنه الأول وعن كل ما عداه من أوطان ، وأعظم بهذه المصرية التى لقى صاحبها العظيم في سبيلها من المحن ما لم يلقه إنسان !.

(أ . م)

وحين دخلت دارك ، أحسست أنك تسعد هناك بروح الجنة على ثرى الأرض ، وأنك تنعم بلذة الخلد فى فناء الحياة ، وشعرت أنا بأن العزب رجل تافه خسر بهاء الدنيا ورونق الأسرة .

ثم ضربت الأيام بيني وبينك — مرة ثانية — فوجدت فقدك فى قرارة نفسي ولكن قلبي كان ينبض بالرضا والطمأنينة لأنه رأى دارك تفهق بالسعادة والرفاهية .

وتناهى إلى — بعد سنة واحدة — أنك تطب لمرض ألمّ بك فتاقت روحي إليك ، لعلى أستطيع أن أروّه عنك بلاء الداء . أو أزيح سفعات الألم . وحين وجدت السبيل إليك ، اندفعت أنت تحدثني حديثك ، فقلت : « . . . وذهبت أفتش عن دواء لداء عيني عند طبيب من ذوي الرأى والتجربة . ووجد الطبيب فىّ ضعفاً فاستغله فتهدّم علىّ يستنفد وفرى ويلتهم مالى . وطالت بى مدة العلاج ، وللطبيب أسلوب فيه الخديعة والأمل ، يستتر من ورائه أفانين من الجهل والجشع ، وأنا لا أجد معدى عن أن أستسلم فى خضوع وأن أستخذى فى ضعف . ثم ارتفعت عن عينىّ يد الطبيب ففزعت إذ أحسست بأن نور عينى يوشك أن ينطفىء فتظلم الحياة فى ناظرىّ إلى الأبد ؛ ولكن الأمل كان يراودنى آناً فآناً ، لأننى كنت أرى بصيصاً من نور يكشف لى الطريق ، فطرت — بعد لأى . إلى الطبيب أستجديه وأستعينه فوضع يده — مرة ثانية — ثم رفعها فإذا أنا أعمى قد كف بصرى

« آه ، يا صاحبي ! لقد انهار كيانى وانهد عزى وتداعى ركنى وأصابتنى البلوى فى الصميم من قلبى ، وفى العزيز من روحى ، واعتورنى اليأس والأسى ، وآذانى ما انتهيت إليه . فكنت أنطلق إلى حجرتى وحيداً أنخرط فى بكاء مر طويل ، وأنا أشفق على أولادى أن تصفعهم النكبة فتخبو فيهم جذوة الحياة ، وتخمد روح السعادة فى الدار ، ويعصف بنا الفقر ويقتلنا الضنى وتذهب بريحنا الفاقة ، فكتمت الأمر فى قلبى وفى قلب زوجى .

« وثارت ثائرتى — ذات مرة — فانطلقت إلى الطبيب ، برفقة زوجى ، أريد أن أثأر لنفسى . وحين اندفعت إليه أحاول أن أنشب أظافرى فى عنقه انفلت من بين يدى فارتطمت بالجدار فسقطت وأنا أصرخ فى غيظ وكمد لأننى لم أشف غلة نفسى .

وانطوت الأيام وأنا أعالج لوعة نفسى بالصبر ، وآسو جراح قلبى بالتأسى ، غير أننى كنت أفزع لكل نأمة وأجزع من كل صوت وأهرب من كل صديق . ورقت مشاعرى فلازمنى الصمت والبكاء ... ثم عافت نفسى أن تنزل عن كبريائها ، وأنا من بيت دين وورع ، يترفع عن الاستخذاء فى البلوى ويسمو على الضعف فى الرزء ، فأمسكت على مضض وابتسمت على لوعة وأسلمت على بثّ .

« ثم وقعت بين فكين من الحياة فيهما الغلظة والجفوة ، فأنكرنى رفاقى فى غير رحمة ، وتزوّع عنى ذوو قرابتى فى غير شفقة أما الحكومة فكانت الداء العياء والبلاء الأكبر ، فلقد طردتنى من عمل لا أمل فيه ودعّتنى عن مكان لا أصبو إليه ، لم ترحم صبيتى ولا أشفقت على ضعفى ، فسلبتنى راتبى ومنعتنى حقى ونبذتنى إلى الشارع .

« وفى ذات مساء جاء ساعى البريد يعتذر بلسان سيده البك عن بعض ما سطرته يد السيد فى خطاب الرفت .. ورآنى الساعى فى محنتى فانكبّ على يدى يقبلهما فى عطف ، ويبللهما بدموع المحبة والإخلاص ... دموع الرقة والإنسانية ، فانهمرت عبراتى ، انهمرت لأننى ألفيت فى الساعى كرما وشهامة على حين انطوى قلب سيده البك على ضعة وسفالة » .

وثارت شجون صاحبى فتاهت الكلمات على لسانه ... سكت وجبينه يرفض عرقاً لأنه يحاول أن يكتم نوازع نفسه عنى وهى تضطرم فى عنف وشدة ... على حين أنى لم أنس أنه كان لى فى ميعة الصبا رفيق الروح فى وحدة الحياة ، وأنيس القلب فى وحشة العمر ، ونور النفس فى ظلام العيش .

وانتفض قلبى فى حرقة وأسى ... انتفض لأننى رأيت صغاراً يرفون حوالينا كالأقمار رونقاً وبهاء ، فماذا ... ماذا تخبئ لهم الأقدار ، يا قلبى ؟

كامل محمود حبيب